آثار الاحتلال الفرنسي في الثقافة الإسلامية
في غرب إفريقيا "النيجر نموذجا"

مجلة دراسات إفريقية

Journal Homepage: http://studies.africansc.iq/
ISSN: 2518- 9271 (Print) ISSN: 2518- 9360 (Online)

آثار الاحتلال الفرنسي في الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا "النيجر نموذجا"

أ.د. علي يعقوب
أستاذ بالجامعة الإسلامية بالنيجر/ وعميد الدراسات العليا والبحث العلمي
alidiallo2004@yahoo.com

تاريخ الاستلام:
٢٥/ ٧/ ٢٠٢٤
تاريخ القبول:
٣٠/ ٧/ ٢٠٢٤
تاريخ النشر:
١/ ٩/ ٢٠٢٤

الكلمات المفتاحية:
الاحتلال، غرب أفريقيا، النيجر .

ملخص البحث:

ورقة بحثية بعنوان: آثار الاحتلال الفرنسي في الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا "النيجر نموذجا"

تقع في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : عبارة عن حديث موجز عن الاحتلال الفرنسي لغرب إفريقيا عامة، مظاهره ودوافعه وتطوره

المبحث الثاني : يدور حول الاحتلال الفرنسي للنيجر خاصة وتطوراته وما أحاط بذلك من ظروف تاريخية .

وأما المبحث الثالث: فحاولنا فيه رصد آثار الاحتلال الفرنسي في الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا عامة والنيجر خاصة، ويهتم المبحث بمظاهر تأثير الاحتلال الفرنسي الثقافة الإسلامية في هذه المنطقة من جوانب مختلفة .

من هنا تأتي أهمية دراسة موضوع مشكلات المياه العابرة للحدود: سد كاريب بين زامبيا وزيمبابوي دراسة حالة، وقد اشتملت الدراسة على ست نقاط بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة، واشتملت على التعريف بالسدود الكبيرة على الأنهار العابرة للحدود والهدف منها، والمشكلات التي تصاحب هذه السدود.

المجلد الثاني العدد (١٦)
صفر - ١٤٤٦هـ
أيلول ٢٠٢٤م

The Effects of the French Occupation on Islamic Culture in West Africa “Niger as a Model”

Pr.Aliou Yacouba
Islamic university of Niger
alidiallo2004@yahoo.com

Received:
25/7/2024
Accepted:
30/7/2024
Published:
1/9/2024

Keywords:
Aliahtilali, gharb 'afriqia, alnayjir

Journal of African Studies
volume (2)
Issue (16)
Safar 1446 H

Absrract

A research paper entitled: The Effects of the French Occupation on Islamic Culture in West Africa “Niger as a Model”

The paper includes three sections:

The first section is a brief discussion of the French occupation of West Africa in general, its manifestations, motives, and developments.

The second topic discusses the French occupation of Niger in particular, its developments and the historical circumstances surrounding that.

As for the third section, we tried to monitor the effects of the French occupation on Islamic culture in West Africa in general and Niger in particular. The study is concerned with the manifestations of the influence of the French occupation on Islamic culture in this region from various aspects.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد .

فإنَّ الثقافة الإسلامية قد ساهمت في نهضة إفريقيا وتقدّمها، وتألَّقت فيها الحضارة الإسلاميَّة قديمًا في ممالكها المسلمة، مثل: مملكة مالي، وسُنغي والدُّول التي جاءت بعدهما حتى احتلال المستعمر الفرنسي، الذي أعلن حربًا ضروسًا على الثَّقافة الإسلاميَّة واللغة العربيَّة، لغة الثَّقافة والسياسة بممالك غرب إفريقيا، وإنَّ لاحتلال الفرنسي أثارا سلبية في اللُّغة العربية والثَّقافة الإسلاميَّة بغرب إفريقيا وبغيرها من المناطق، ولا يمكن التَّصدِّي لهذه السلبيات إلا بالمعرفة الحقيقيَّة لها، ومن ثمَّ مواجهتها بالوسائل المناسبة، وذلك أمر ممكن –بإذن الله– لأنَّ كثيرًا من الظُّروف ما زالت في صالح الثقافة الإسلامية واللُّغة العربيَّة، مثل: الإقبال الطبيعي من لدُن الشُّعوب المسلمة بغرب إفريقيا على دراسة اللغة العربيَّة والتثقف بالثقافة الإسلامية على الرُّغم من الإغراءات الكثيرة المعروضة لدارسي الفرنسية، كلُّ ذلك يحفِّز القائمين على العمل الإسلاميِّ المواجهة التَّحديات التي تمثِّلها آثار الاحتلال الفرنسي أو الفرانكفونية في وجه انتشار اللُّغة العربيَّة والثقافة الإسلامية بغرب إفريقيا عامة والنيجر خاصة .

المبحث الأول: الاحتلال الفرنسي لغرب إفريقيا:

كانت فرنسا أكثر الدول الأوروبية نشاطا في غرب إفريقيا، قد بدأت علاقات فرنسا بغرب إفريقيا في القرن السابع عشر الميلادي، حين أسست شركة السنغال الملكية عام ١٦٩٧م في سان لويس بقصد الاتجار في الرق، ولم يتوغل في الداخل إلا في القرن التاسع عشر، عندما فكرت فرنسا في توجيه أنظار شعبها إلى النشاط الاستعماري؛ ولتعويض ما فقدتهُ أثناء الصراع في أوربا ،حيث هزمت أمام الألمان في عام ١٨٧٠م وفقدت الألزاس واللورين، وحولت منطقة السنغال من مجرد محطة للتجارة إلى مستعمرة حقيقية، وقد

عينت في عام ١٨٥٤ الجنرال لويس فيدرب (Louis faidherbe) حاكما على السنغال ليدعم نفوذ فرنسا، فكان أول من استخدم القوة العسكرية ضد الوطنيين، ونجح في التوغل إلى الداخل، وفتح الطريق إلى حوض النيجر[١][٢] ولم يكن الطريق سهلا لأن –التوغل– قد قوبل بمقاومات من زعماء الإسلام من أمثال : الحاج عمر الفوتي، وابنه أحمد سيكو، والشيخ لامين درامي، وساموري توري، وألفا شعيب الضرير وغيرهم.

واستطاعوا أن يكبدوا جيش الاستعمار خسائر فادحة، واضطروا إلى إرسال التعزيزات مراتٍ عديدة، وأن يغيروا القيادات، وعقد اتفاقيات الهدنة مع هؤلاء الزعماء المسلمين والملوك المحليين، ولم يستطع الفرنسيون الدخول إلى وادي النيجر الأعلى إلَّا في عام ١٨٨٣م حيث استولوا على مدينة بماكو.

وفي عام ١٨٩٤م استولوا على مدينة تمبكتو – التي كانت عاصمة العلم والعلماء وبخاصة في عهد إمبراطورية سنغي الإسلامية– وكذلك استولوا على مدينة ساي (Say) ودوسو (Dosso) في النيجر، وأسسوا مستعمرة ساحل العاج على الساحل عام ١٨٩٣م. ولم يأت عام ١٩٠٠م حتى استولت فرنسا على معظم أراضي غرب إفريقيا ووسطها.[٣]

المبحث الثاني: احتلال فرنسا للنيجر:

لقد بدأ الاحتلال الفرنسي لبلاد النيجر في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وكان بدايته عن طريق البعثات الاستكشافية للمنطقة بذريعة استكشاف منبع نهر النيجر ومصبه. ومن تلك البعثات بعثة **منغو بارك** (Mongo Park) الذي قام بعدة رحلات في المنطقة بهدف استكشاف نهر النيجر. فقد قام برحلته الأولى عام ١٧٩٥م التي بدأها من نهر غامبيا، وسار حتى وصل إلى مدينة **سيغو** – في مالي– الواقعة على نهر النيجر، ثم

(١) انظر : المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا، عبد الله عبد الرزاق، ص: ٢٠.

(٢) ندوة الإسلام والمسلمون في أفريقيا، ص: ١٢٠ .

(٣) المصدر السابق، ص: ١١٩.

اضطر للعودة إلى لندن لتدهور صحته، ونضوب مدخراته. وقد ذكر ذلك في مذاكراته حيث قال: «أنهكني الجوع والإعياء ولا أدثر إلا بما يستر العورة... ولا أملك أي سلع يمكن مقايضتها بطعام وملابس[١]». وفي عام ١٨٠٥م قام برحلته الثانية للمنطقة، وبدأها من غامبيا أيضا إلى أن وصل إلى **سيغو** ومنها مع النهر النيجر في الضفة الشرقية منه واصل رحلته إلى أن وصل إلى بلدة **بوسا** -في نيجيريا- حيث لقي حتفه وذلك في عام ١٨٠٥م.

ثم بعثة **كلابرتون** (Clabarton) الذي بدأ رحلته عام ١٨٢٢ من مدينة طرابلس الغرب إلى بحيرة تشاد، حيث افترق مع زميله **دنهام** (Danham) الذي اتجه نحو جنوب البحيرة، واتجه **كلابرتون** مع زميل له نحو الجنوب الشرقي ليكتشف نهر شاري، ومنه اتجها إلى الغرب ليكتشفا نهر النيجر، وتوفي زميله أثناء الرحلة وواصل **كلابرتون** رحلته حتى وصل إلى مدينة **صكتو** عاصمة الخلافة العثمانية في عهد الشيخ **محمد بلو** بن الشيخ **عثمان بن فودي**، وقد منع الشيخ **محمد بلو** كلابرتون من مواصلة رحلته إلى نهر النيجر عند مدينة **ياووري** (Yaori) وعاد أدراجه إلى **كوكو** (Kaukua) عاصمة إمبراطورية **كانم –برنو** الإسلامية حين اتجه مع زميله **دنهام** نحو الشمال عبر الصحراء الكبرى مرورا بمدينة بلما (Bilma) في النيجر. ثم طرابلس حيث وصلا إلى بريطانيا عام ١٨٢٥م. وقد عاد كلابرتون إلى المنطقة في رحلة ثانية في نفس العام حتى وصل إلى مدينة **صكتو** التي لقي حتفه فيها عام ١٨٢٧م[٢].

لعل أهم هذه البعثات الاستكشافية هي بعثة هنري بارث (Henri Barth) الذي تمكن من زيارة قسما كبيرا من البلاد، واستمرت رحلته لمدة خمس سنوات، وقد قضى فترة في مدينة **أغاديس**، وكذلك في **زندر** (Zender) وزار مدينة ساي، والصحراء

---

(١) بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز، ط٢، ١٩٨٨، جامعة بنغازي – ليبيا، ص: ٣٤٧.

(٢) رحلة استكشاف إفريقيا لكلابرتون، ترجمة د. عبد الله عبد الرزاق، طبعة المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، عام ٢٠٠٣م، ٢/ ١٨٥.

الكبرى وغيرها من المناطق.

وكانت رحلته ما بين عام ١٨٥٠-١٨٥٥م وقد سجل ملاحظاته في كتاب ضخم ووصف فيه القبائل والمدن التي زارها وصفا دقيقا.

قد أدَّت نتائج هذه البعثات إلى إثارة مطامع الحكومات الأوربية للمنطقة ثم ما لبثت أن نظمت حملات عسكرية لاحتلال البلاد، وأرسلت لذلك حملات عدة، ومن أشهر تلك الحملات حملة الكابتن **ڤولي** (Volet) ومساعده **شانوان** (Chanoine) وقد اشتهرت بدمويتها حيث أحرقت وأبادت قرى كثيرة في طريقها وقتلت عددا من سكانها رميا بالرصاص أو الشنق. وقد انطلقت هذه الحملة البربرية الدموية من مدينة بماكو عام ١٨٩٨م بهدف إنشاء إمبراطورية تشمل السودان الغربي وتشاد ببضعة جنود فرنسيين ورماة السنغال البالغ عددهم ستمائة رجلا. وقبل أن تدخل البعثة الأراضي النيجرية انقسمت إلى فريقين : أحدهما سار نزولا باتجاه النهر -الضفة اليسرى-، والآخر ذهب عبر **غُورما** (أي -الضفة اليمنى- للنهر -، وكان ذلك في يناير عام ١٨٩٩م. ولما وصل **الكابتن ڤولي** - الذي سار مع النهر- إلى قرية **سَنْسَنِ هوسا** (Sanssani Haussa) في منطقة **تيلابيري** (Tillaberi) أحرقها وأعدم مائة شخص من أهلها لما رفضوا الانصياع لأوامره، واتبع مساعده **شانوان** المنهج نفسه في مدينة ساي فأعدم حوالي عشرة من الحمالين لما أبطؤوا في تنفيذ أوامره ونهب وأحرق قرىً عديدةً في المنطقة، ثم التقيا في شهر الثامن من العام ١٨٩٩م نفسه وسارا معا[1] وازداد الشر والفساد باتحادهما وأبادوا قرية **سَرَوْنِيَا** – الملكة- في منطقة **دوتشي** (Doutchi) لما قاومتهم. وكذلك مدينة **برني كوني** (Konni)في منطقة **طاوا** (Tahoua) التي دمروها تدميرا كاملا، وأعدما جميع الأسرى. واتبعوا هذا الأسلوب في جل المدن والقرى التي مروا بها لكن موجة العنف هذه ما لبثت أن حملت أصداءها إلى باريس، فكان أن أرسلت الأوامر إلى **الكولونيل كلوب** الذي كان في مدينة **كاي** (Kayes) – مالي- بأن يلحق بـ**ڤولي** ومساعده ويعزله عن منصب القيادة. ومر في طريقه بجميع القرى التي أبادها ڤولي ومساعده إلى أن

(١) انظر : النيجر اليوم، ص: ١٢٤-١٢٥، بتصرف.

أدركهما في شمال **تساوه** (Tassaoua)[١] وأمر ڤولي بإطلاق النار على **كلوب** فقتل فكان ذلك سبب تمرد الجند عليهما فقتلوا **ڤولي** ومساعده **شانوان** في عام ١٨٩٩م. وتولى القيادة بعدهما **مينيه** مساعد **كلوب** و**جوالان** مساعد ڤولي ثم قررا استئناف مهمة البعثة كما كانت مقررة فاحتلا زندر والتقيا بعد ذلك على بحيرة تشاد مع بعثتي فور لامي وجنتيل واتحدوا وشنوا حربا ضد رابح فضل*.

قد مهدت هذه الحملة الدموية لفرنسا احتلال النيجر، وذلك لما أذاقه الشعب من الإبادة على أيدي هذه الحملة وغيرها. ولكن مع ذلك فإن قوات الاحتلال قد واجهت مقاومة قوية من الشعب حيث رفعوا راية الجهاد في سبيل الله. ولم تستطع فرنسا أن تسيطر على البلاد كاملا إلا في عام ١٩١٩م. وفي عام ١٩٢٢ أصبحت النيجر مستعمرة فرنسية عاصمتها زندر. وفي عام ١٩٢٦م تم نقل العاصمة إلى مدينة نيامي (Niamey) واعتبرت النيجر امتدادا للجمهورية الفرنسية فيما وراء البحار عام ١٩٤٦م. ثم أعلنت جمهورية النيجر عام ١٩٥٨ واستقلت عام ١٩٦٠م[٢].

ومن الجدير بالاستدراك والذكر أن جمهورية النيجر من الدول التي دخلتها الإسلام في القرن الأول الهجري، السابع الميلادي وبخاصة الشمال الشرقي منها وذلك حيث توغل التابعي الجليل **عقبة بن نافع** بفتوحاته الإسلامية في جنوب **فزان** عام ٤٦ هـ إلى أن وصل إلى منطقة **كعوار** في النيجر ففتح عدة حصون في المنطقة، ثم واصل فتوحاته إلى **غدامس** في ليبيا، ومنها إلى **القيروان** في **تونس**[٣] .

وكانت النيجر جزءاً من الإمبراطورية الإسلامية التي قامت في المنطقة مثل

---

(١) المصدر السابق، ص: ١٢٥.

وهو من الزعماء المسلمين الذين لعبوا دورا مهما في مقاومة الاستعمار ونشر الإسلام في المنطقة، وقتل في عام ١٩٠٠ في معركة مع الفرنسيين.

(٢) انظر اللغة العربية وآدابها في النيجر في عهد الاستعمار، علي يعقوب، أطروحة دكتوراه ٢٠٠٥، ص: ٢٠.

(٣) علي يعقوب، المصدر السابق، ص: ١٥، وانظر ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص: ٩٥.

إمبراطورية مالي وسنغي والخلافة العثمانية في **سكتو** (Sokoto) وإمبراطورية **برنو** وتبلغ مساحتها ١,٢٦٧,٠٠٠ كيلومتر مربع وهي دولة داخلية حيث لا تطل على البحار والمحيطات وتحتل الصحراء أكثر من نصف مساحتها، وبخاصة في الشمال، وأُخذ اسمها من النهر الذي يمر في جنوبها ويبلغ طوله في أراضي النيجرية حوالي ٥٥٠ كيلومتر.

المبحث الثالث: آثار الاحتلال الفرنسي في الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا (النيجر نموذجا):

قد أصبحت اللغة العربية لغة الدين والثقافة، والحياة الإدارية في غرب إفريقيا منذ أن رسخ قدم الإسلام فيها، وأصبحت الثقافة الإسلامية هي السائدة في المجتمع وبخاصة في عصور الإمبراطوريات الإسلامية مثل : إمبراطورية مالي وسنغي، والدولة العثمانية في سكتو ودولة ماسنا وإمبراطورية كانم وبرنو، وقد زلت اللغة العربية سائدة حتى مع سقوط الدول الإسلامية وسيادة الفوضى في عهد الرماة في تنبكت والمناطق المجاورة لها. «والناظر في الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا يجد أن خير مقاييس لها هي: عدد العلماء، عدد الطلاب وتنوع أماكن التعليم، حركة التمدن، الكتب الواردة، والمكتبات الخاصة ودرجة اتساع التأليف[١]» وفيما يخص عدد العلماء يذكر السعدي صاحب تاريخ السودان أنه عندما أسلم سلطان جني كان بها ٤٢٠٠ عالما[٢].

قد يظن البعض بأن في العدد مبالغة، ولكن لو نظرنا إلى قرى متلاصقة بجني نجدها سبعة آلاف وسبعاً وسبعين قرية، وعليه ففي كل قريتين عالم واحد –بمعنى معلم الصبيان القرآن– وهذا هو الوجود الكثيف للعلماء في المدن والقرى ساعد على نشر القراءة والكتابة اللتين أضحى لها دلالة دينية مرتبطة بقراءة القرآن وكتابته مما ييسر

(١) عز الدين عمر موسى، دراسات إسلامية غرب إفريقيا، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط٢، ٢٠٠٣– ص: ١١٣.

(٢) السعدي، تاريخ السودان، ص: ١٢.

تخريج أعداد كبيرة ممن يتلقون هذا النهج من التعليم[١]، ثم لا يستغرب أن يَخُرج هذا العدد من العلماء عدداً من التلاميذ، وأحصى بعضهم عدد تلاميذ في كُتَّابٍ واحد في **تمبكتو** فوجدهم مائة وثلاثة وعشرين تلميذاً وفيها حوالي مائة وخمسون كتّابا. هذا في **تنبكت** وحدها فما بالك بباقي المدن مصل غاو **وأغاديس، وكانو**؟ وكان للعلماء مكتبات عامرة وكذلك بعض الملوك.

كان لعلماء المنطقة مساهمات فعالة في حركة التأليف، وقد ألفوا في فنون عدة مثل الفقه والتاريخ والعقيدة والنحو والصرف وغيرها من العلوم الشرعية واللغوية، ومن أشهر المؤلفين في عهد **سنغي** الشيخ **أحمد بابا** الذي اشتهر في داخل المنطقة وخارجها بدروسه ومؤلفاته، ومن أشهرها: **تطريز الديباج** ولقد بلغت حركة التأليف ذروتها في عهد الخلافة العثمانية في **سكتو**.

وفي عهد حركة **الحاج الفوتي** في **غينيا والسنغال ومالي**، وبخاصة في فترة اختلافه مع **الشيخ أحمد لبو** في ماسنا حيث تبادلا رسائل عدة يحاول كل منهما أن يقنع الآخر بفكرته، وتعكس هذه الرسائل تمكنهما من زمام اللغة العربية. وقد جمعت تلك الرسائل في كتاب بعنوان: «ما وقع» وكذلك الرسائل المتبادلة بين **أحمد لبو** وأمير المؤمنين في **صكتو** في عهده الشيخ **أبو بكر العتيق بن عثمان بن فوديو**، وكذلك ساهم علماء منطقة **أغاديس** وتغيدا في حركة التأليف ومن أشهرهم الشيخ **جبريل بن عمر** شيخ وأستاذ الشيخ **عثمان بن فوديو**، ولعلماء البرنو مساهمة مماثلة في هذا المجال وبخاصة الشيخ **أحمد فرتو**. وهذه المساهمة تمثل مدى انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية في منطقة غرب أفريقيا قبل الاستعمار.

«إن هذه الثقافة لم يصبها الضعف إلا عندما خضعت القارة الإفريقية للاستعمار الأوربي، وفرض كل مستعمر لغته في الإدارة والتعليم. غير أن لغة المستعمر ظلت في الغالب لغة التفاهم والتواصل بين الصفوة المتعلمة تعليما غربيا على اختلاف لغاتها الأصلية. ولكن العامة في كل قطر ظلت تستعمل اللغات المحلية في أغلب الأحيان،

(١) عز الدين عمر موسى، المصدر السابق، ص: ١١٧، بتصرف.

وهي لغات متأثرة بالعربية تأثيرا كبيرا[١]» بسبب غلبة الثقافة العربية الإسلامية في مجتمعات غرب أفريقيا. وكان الحرف العربي هو الحرف الذي أصبح يكتب به أشهر اللغات في المنطقة مثل لغة الهوسا والفلاني والولوف والبمبارا.

لما احتلت فرنسا المنطقة في بدايات القرن العشرين حاربت الحرف العربي حربا لا هوادة فيها وأحلت محل الحرف العربي الحرف اللاتيني.

وحاربت كذلك اللغة العربية والثقافة الإسلامية السائدة في المجتمع، واتبعوا في محاربتها أساليبها متنوعة. وقبل ذكر تلك الأساليب أرى أنه من الأفضل ذكر سياسة فرنسا الاستعمارية في أفريقيا.

قد رسمت فرنسا سياستها الاستعمارية في أفريقيا على أساس فلسفة معينة، ويختلف نظام الحكم الاستعماري الفرنسي عن النظام البريطاني، فبينما يعتبر نظام الحكم غير المباشر أحد المظاهر الرئيسة المميزة للحكم البريطاني، فإن الحكم المباشر هو سمة النظم الحكومية التي أقامتها فرنسا في قارة أفريقيا ... والعجيب أن السياسة الاستعمارية الفرنسية بنيت على بعض المبادئ البراقة في مظهرها التي أعلنتها الثورة الفرنسية. فقد استند الفرنسيون على أن جميع سكان المستعمرات يجب أن يكونوا مواطنين فرنسيين لهم الحقوق نفسها وعليهم الواجبات نفسها، وعلى هذا الأساس قامت نظرية الامتصاص أو الاستيعاب ؛ والمقصود بها صبغ المستعمرات بالصبغة الفرنسية عن طريق ثقافة الفرنسيين المستعمرين، ولغتهم وتقاليدهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية. حتى يصبح تفكيرهم واتجاههم في مختلف نواحي الحياة كالفرنسيين. وهذا يتطلب بالطبع قطع كل صلة للأفريقي المسلم بتاريخه الإسلامي وحضارته الإسلامية بمختلف مظاهرها ومقوماتها[٢].

---

(١) عز الدين عمر موسى، المصدر السابق، ص: ١٤٠.

(٢) عبد الله عبد الرزاق، وشوقي الجمل، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، بدون تاريخ، ص: ٣٠٣.

لما هيمنت فرنسا على غرب إفريقيا ووجدت أن اللغة العربية هي لغة الدين والثقافة والحياة الإدارية، وقد أشار إلى هذا حاكم عام لفرنسا بأفريقيا الغربية (من عام ١٩٠٨-١٩١١م) **وليام بونتي** (William Ponty) في مرسومه الذي أصدره يوم ٨/ ٥/ ١٩١١ وهو موجه إلى حكام المستعمرات التابعة له مثل النيجر والسنغال ومالي: «لقد أثار انتباهي ما يحدث من عراقيل بسبب استعمال اللغة العربية في تحرير الأحكام الصادرة عن القضاء الأهلي، وفي المراسلات الرسمية مع الرؤساء والأعيان وفي كل ظروف الحياة الإدارية تقريبا ... إن العربية لم تدخل البلاد الإفريقية إلا مع الدعوة الإسلامية وهي اللغة المقدسة في نظر الأسود!! [(١)]» وانطلاقا من هذه الفكرة ضد اللغة العربية والثقافة الإسلامية كثّفت السلطات الاستعمارية جهودها لاستئصال اللغة العربية والثقافة الإسلامية في غرب أفريقيا الفرنسية واستخدمت لذلك كل الوسائل المتوفرة لديها ومن ذلك:

- فرض قيود صارمة لاستيراد الكتب العربية من البلدان العربية، حتى الحجاج قد منعوا من حمل الكتب الدينية والعربية معهم عند رجوعهم من الحج.

- تشديد الرقابة على كل المطبوعات العربية سواء أرسلت بالبريد أو بغيره.

- إحصاء كتب العلماء بغرض حصرها وفرض الرقابة عليها إن زادت أم لا ؟ ومن ذلك قيامها بإحصاء كتب مكتبة الشيخ أحمد كيار، والشيخ حسن سليمان في مدينة زندر في النيجر[(٢)].

- مراقبة المؤسسات الدينية الإسلامية حيث حددوا نطاق إنشاء المساجد فكانت لا تسمح ببناء مسجد إلا لأفراد يحظون بثقتهم وهم القلة بطبيعة الحال. وكان الاستعمار يخاف من المسجد خوفه من سائر المؤسسات الإسلامية فبناء المسجد يعتبر وسيلة لتقدم الإسلام. ولم يخف (فيدرب) –حاكم الإفريقية الغربية الفرنسية– خوفه من المسجد

(١) عبد العلي الودغيري، الفرانكفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب، ط١، ١٩٩٢م، ص: ٧٩.

(٢) الإسلام والقبائل في مستعمرة النيجر، بول مارتي، ص: ٣٥٢.

حيث صرح في عام ١٨٥٥ بذلك وقال:«إن الإسلام لدى السود أمر معرقِل أمامنا ... لكن في النهاية إن وُجد المسجد، فلا رجوع لنا بعدئذ[١]».

– حظر استعمال العربية في كل مرافق الإدارية والاقتصادية والاجتماعية فعمدت إلى نشر المدارس الفرنسية في سائر المدن والقرى، وقلصت حصص العربية وتعليم القرآن، ثم حذفتها نهائيا، بل لقد وصل الأمر إلى حد منع الفرنسيين الموجودين في المنطقة من مخاطبة السكان بغير اللغة الفرنسية مهما كانت الظروف والملابسات[٢] لأنهم كانوا في بداية أمرهم يخاطبون ويراسلون السكان باللغة العربية وبخاصة العلماء وطلاب العلم.

– فرض قيود صارمة لافتتاح مدرسة عربية فأصدرت لذلك قرارات جائرة للحيلولة دون أداء المدارس العربية، ومن ذلك فرض على كل من يريد افتتاح مدرسة إسلامية ولو كتّابا أن يتقدم لامتحان خاص بهدف معرفة مستواه بهذه اللغة، وذلك بدعوى تحسين التعليم الإسلامي، واختيار معلمين أكفاء، ثم تلا ذلك بقرار آخر وهو الحصول على الرخصة من السلطات الاستعمارية قبل افتتاح مدرسة إسلامية. وغالبا ما ترفض إعطاء الرخصة.

– منع المتعلمين من ممارسة النطق باللغة العربية والتعامل بها بأي شكل من الأشكال، وبلغ من تعنتها أن حاولت استبدال اللغات المحلية في المجالس والمدارس باللغة العربية.

ولهذا الغرض توجه أحد كبار إدارة الشؤون الإسلامية إلى مدرسة في **سيغو** (مالي) فعرض على الشيخ **ديمبا واغي** – مؤسس مدرسة عربية هناك– تغيير لغة التدريس عن طريق إلقاء الدروس باللغات المحلية[٣] ولكن الشيخ رفض أن يرضخ لأوامر السلطات

(١) انظر المسلمون في السنغال، عبد القادر سيلا، ص: ٨٧.

(٢) الودغيري، المصدر السابق، ص: ٧٢.

(٣) عبد القادر سيلا، المصدر السابق، ص: ٨٩ بتصرف.

الاستعمارية.

تصيد ضعاف القلوب من سكان المنطقة لتحطيم مقوماتهم الدينية والثقافية بتسهيل سبل العلم والعمل لهم، بقصد تضعيف الثقافة الإسلامية في نفوس الذين يشتغلون بها خاصة ثم في نفوس سكان المنطقة عامة.

أخذ أبناء الشيوخ والأعيان عنوة وإرسالهم إلى مدارسهم وأسسوا لذلك مدرسة الرهائن، ثم إسناد الأمور إليهم بعد تخرجهم، وهم بالطبع سيكونون موالين لهم لثقافتهم الفرنسية.

تأسيس بعض مدارس عربية نظامية عصرية في بعض المدن التي كانت مراكز للثقافة الإسلامية فأسست مدرسة عربية في سان لويس بالسنغال وأخرى في بوتلميت في موريتانيا، وأخرى في تمبكتو في مالي، ولما لاحظوا رفض العلماء إرسال أبنائهم إلى مدارسهم حملوهم على التعليم الإجباري، وذلك بأخذ أبنائهم في مناطق متعددة وإدخالهم في تلك المدارس، وليحلوا محل آبائهم في تسيير شؤون الكتاتيب بعد تخرجه.

قد ظهرت آثار هذه الأساليب على الثقافة الإسلامية بعد فترة من الزمن وذلك بتناقص عدد المدارس الإسلامية وتلامذتها ويصرح حاكم مقاطعة النيجر عام ١٩٢٣م بريفيه (Brevie): «أما الآن فتقهقر الدعوة الإسلامية أمر لم يبق فيه شك، وإن إحصاء عدد الناشئة المتعلمة من المسلمين يتناقص في بلاد النيجر، كما أنه لم يتقدم إلى الأمام في سائر البلدان التي امتد إليها الإسلام من قبل[١]» وقد عزا الحاكم سبب هذا التقهقر إلى تناقص عدد الزعماء الإسلاميين –أي العلماء– وإلى تزايد عدد مدارسهم التي زاحمت مدارس المشايخ المرابطين[٢] وكذلك صرح بول مارتي لما قام بإحصاء المدارس الإسلامية وتلامذتها في زندر بعد دخول الاستعمار الفرنسي إلى البلاد بعشر سنوات تقريبا وقال:

---

(١) لوثروب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامي، تعليق الأمير شكيب أرسلان، طبعة دار الفكر، بيروت ٢/ ٣٥٣.

(٢) المصدر السابق، ٢/ ٣٥٣.

«عدد المدارس والطلاب انخفض جدا مع استمرار الاستعمار»[١].

المحور الثالث: آثار الاحتلال الفرنسي في الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة:

ومن أهم آثار الاحتلال الفرنسي في الثقافة العربية والإسلامية في المنطقة

ركود الأنشطة الفكرية بين صفوف المسلمين، وقلة الاهتمام بالتأليف وكتابة المقالات حتى باللغات المحلية فضلا عن العربية، فأصبح الناس لا يستطيعون القيام بالكتابة والتأليف كما كان الأمر قبل الاحتلال[٢] قد غرس الاحتلال قبل رحيله العداوة للثقافة الإسلامية في نفوس المثقفين بثقافتها، وأبعدوها عن الساحة الفكرية ورفعوا الثقافة الفرنسية، وجعلوا مثقفها هو المثقف الحقيقي، وأما المثقف بالثقافة الإسلامية فيعد بمثابة أمي، ومن هنا أبعدوه عن أية مشاركة في العمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ومكانهم المناسب هو المسجد فقط. وأن الثقافة الإسلامية إنما هي وسيلة إلى الشعوذة والدجل، وصور لدى الرأي العام الأفريقي بأنه درويش ينقصه التفكير العلمي والحس السياسي.

قد عمل الاحتلال الفرنسي على نشر الدين المسيحي الذي لم يكن له وجود في المنطقة قبل الاحتلال، وحاولت أن تستند الأمور إلى المسيحيين، وإن كانت النيجر قد نجت من هذه الورطة أيام الاستقلال لندرة من اعتنق المسيحية من النيجريين.

قد ظل شعبها ترفض إرسال أبنائهم إلى المدارس الفرنسية، ويرونها مدارس الكفار وظل سكانها يطالبون بإنشاء مدارس عربية عصرية لإرسال أبنائهم إليها.

من الجدير بالذكر هنا مع الأسف الشديد أن النيجر لم يكن فيها مدرسة عربية نظامية واحدة سواء كانت حكومية أو أهلية إلى عام ١٩٥٧ حيث استجاب الحاكم العام لمنطقة النيجر لضغط السكان واضطر إلى إصدار مرسوم رقم ٣٢، ٥٧/ ١٢/ ١٩٥٧ الآمر بإعادة تنظيم مدرسة ساي، ولكن تحت إشراف الوزارة الداخلية، وقد ظلت

(١) بول مارتي، المصدر السابق، ص: ١٩٣.

(٢) انظر : جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الأفريقي، عثمان برايما بري، ص: ٧٥.

المدرسة تحت الوزارة الداخلية إلى عام ١٩٦٥ أي بعد الاستقلال بخمس سنوات حين ضمت إلى وزارة التربية الوطنية، ثم أوفدت الدولة بعثات علمية إلى معظم الدول العربية لدراسة العربية والثقافة الإسلامية التي فقدت معالمها في البلاد التي كانت الثقافة الإسلامية هي السائدة والحرف العربي هو المستعمل، وقد حذوت معظم بلدان غرب أفريقيا حذو النيجر.

فبتخرج هذه البعثات افتتحت المدارس العربية بجميع مراحلها من الابتدائية إلى الجامعة في البلاد، وتكاد الأمور تعود إلى أحوالها السابقة قبل الاحتلال الفرنسي، وكذلك الحال في جل دول غرب إفريقيا حيث افتتحت أقسام اللغة العربية في جل جامعاتها، وأنشئت جامعات عربية حكومية وأهلية في جلّ دول غرب إفريقيا.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

أولا. المطبوعات:

١ـ بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز، ط٢، ١٩٨٨ جامعة بنغازي، ليبيا.

٢ـ عبد الله عبد الرزاق إبراهيم (دكتور)، المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا، عالم المعرفة ١٩٨٨ الكويت.

٣ـ عبد الله عبد الرزاق وشوقي الجمل (دكتور)، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، بلا تاريخ.

٤ـ عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، باعتناء وداس باريس ١٩٦٤.

٥ـ عبد العلي الودغيري (دكتور)، الفرنكفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب، ط١، ١٩٩٣، المغرب.

٦ـ عبد القادر سيلا، المسلمون في السنغال، كتاب الأمة ١٢ الدوحة، قطر.

٧ـ عثمان برايما بري، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الأفريقي، ط١، ٢٠٠٠، دار الأمين، القاهرة.

٨ـ عز الدين عمر موسى (دكتور)، دراسات إسلامية غرب إفريقية، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ٢٠٠٣، بيروت، لبنان

٩ـ كلابرتون ودنهام، رحلة استكشاف أفريقيا، ترجمة عبد الله عبد الرزاق، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.

١٠لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة وتعليق شكيب أرسلان، طبعة دار الفكر، بلا تاريخ، بيروت، لبنان.

١١ـ ندوة الإسلام والمسلمون في أفريقيا، ١٩٩٨، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا.

١٢ـ النيجر اليوم، طبعة جون أفريك.

ثانيا. الرسائل العلمية:

١٣ـ علي يعقوب، اللغة العربية وآدابها في النيجر في عهد الاستعمار، أطروحة دكتوراه بجامعة عثمان بن فوديو عام ٢٠٠٥.